التفكيـــر الشمولى أحد معانى (الفلسفة)

دكتـــور
عبد الرازق حجـاج محمـــــد
مدرس الفلسفـة المعاصـــــرة
كلية الآداب بسوهـــــــاج

مدخـــل :

لانستطيع أن ننكر ميزة التخصص فى فرع بعينه من فروع المعرفـــة ، لكن معنى التخصص قد انصرف فى أذهان البعض الى الانغلاق داخل دائـــرة واحـده محدده ، ولشيوع هذه الفكره شيء من الخطر ، ذلك لأن العلوم وحـــدة واحدة مترابطة ، ولا نفهم نتائج علم ما أو مقدماته الا يفهم علم اخر مقدماتـــه أو نتائجه ، واذا كنا نريد للمشتغلين بالعلم والمعرفة انفتاحا وابتعادا عـــن الانغلاق المعرفى فإننا نريد ذلك لأصحاب العقول المبدعة إمكانا وبحكـــم قدراتها ، فالابداع والابتكار لايتم الا بالخروج من الدائرة المعرفية الواحـــدة الى دوائر اخرى نجد عندها تأصيلا وتعميقا لتخصصنا هذا أو ذاك .

والحق أن الفلاسفة وبحكم نمط عقولهم المخلوقة خلقة خاصة يتسمـــون بروح شمولية ، وما أكثر ما رأيناهم يعرفون الفلسفة فيحصرونها فى مجـــالات محددة : ما بعد الطبيعة والقيم ونظرية المعرفة ، لكنهم لايلتزمون هـــم أنفسهم بتعريفاتهم ، وانما يبدعون فى مجالات أخرى كثيرة .

كما أن فلاسفة كثيرين حرصوا على أن يضمنوا البعد الشمولى ويدرجوه ضمن تعريفاتهم للفلسفة ، من هؤلاء أفلاطون وديكارت جاســبرز . وســوف نعرض فى هذه المقالة للطابع الشمولى فى تعريف الفلسفة لدى هـــؤلاء .

ونحن نأخذ بتفرقة جاســبرز بين بداية الفلسفة وبين أصلهـــا ..... لعل بدايتها بحكم التاريخ المكتوب تقع عند اليونان ، ولكن أصل الفلسفـــة

يكمن فى ذات الانسان ، والانسان مفطور على ممارسة فعل التفلسف[١] ، ولولا ذلك لما قامت ونشأت العلوم والمعارف جميعها ، ولولاه أيضا لما عرفنا تلك النظرات والنظريات عن الوجود وعن طبيعة المعرفة ، وما الاختلاف بين تفلسف وتفلسف آخر إلا اختلافا فى الدرجة لا فى النوع .

لذلك فاننا نعود الى التاريخ القديم ونتوقف عند المصرى القديم لنتبين عنده ملامح النقطة المتصلة بمقالنا .. حقا لقد ظهر دافع التفلسف لدى انسان الحضارات القديمة قبل ظهور الأديان السماوية وبعدها .

لقد وقف هذا الدافع الفطرى وبصورته الشمولية وراء تقدم المصرى القديم فى الفلك وفى الطب والهندسة ، ولا يعقل ان تكون انجازاتهم فى التحنيط والتصوير والنحت وبناء المعابد والاهرامات بغير علوم نظرية كذلك وقف دافع التفلسف وحب المعرفة وراء كدحهم نحو فكرة الاله وتوصلهم الى وجود بعث وحساب وتركيزهم على (رع) الها عظيما متميزا ، لعلهم كانوا يقصدونه بقولهم (مبدع الفصول والأهلة ... أيها المشرق البهى البعيد القريب ، بارئ ملايين الخلق من نفسك ، مبدع المدائن والقرى والزروع والطرق ، وهو واحد) .

ويصدق تعليقا على هذا النص وغيره مما يشابه موضوعه القول بأن تلك صورة مجملة لخطوات القوم فى سبيل البحث عن الله ، يرون مظاهر قوته وبأسه ، وآيات فضله ورحمته فى كل ماحولهم من صور الطبيعة ..... والمصريون لم يخالفوا أمم الأرض فى البحث عن الله ، فأهل هذا المشرق القريب وهو كما نسمع مهبط الاديان ، قد بحثوا عن الله فى عيون الماء وصخور الجبل ، وفى أكثر مارأوا فى الطبيعة من صور الخلق المختلفة فى الحيوان والطير والنبات والجماد أيضا ، ثم نزعوا الى التوحيد أخر الامر كما فعل آل فرعون[٢] .

---

(١) كارل جابرز (مدخل الى الفلسفة) ص ٥٥ ترجمة د. فتحى الشنيطى . دار النهضة الحديثة .

(٢) د. أحمد بدوى (فى موكب الشمس) ص ٨٢٢-٨٢٣، الجزء الثانى، الطبعة الاولى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩هـ .

ودافع التفلسف الفطرى هو نفسه ماوقف وراء بحث المصرى القديم عن معايير أخلاقية ثابته مطلقة فتمثل ذلك فى ماعت رمزا للعدالة الخالدة (١) التى تقوم عليها كل الفضائل وتكاد تشير باصبع ظاهر الى تأثر أفلاطون بها فى قوله بمثال للخير المطلق ، يقول المؤرخ الكبير هنرى بريستدعن ظهور الضمير والاخلاق فى مصر القديمة :

(لقد انبثق عصر فجر الضمير والاخلاق على العالم فى مصر دون أن يزج به من العالم الخارجى عن طريق منهاج خفى يسمى الالهام أو الوحى ، بل كان منشوه حياة الانسان نفسه ، ويرجع ذلك الانبثاق الى مدة ألفى سنة قبل بداية عصر وحى رجال اللاهوت ، فأضاء ظلمة الحيرة الاجتماعية والكفاح الباطنى فى نفس الانسان ، فكان بذلك دليلا قاطعا على قيمة الانسان (٢).

إن أحد معانى شمولية دافع التفلسف هو تعدد صور حركته ، وقد وجه المصرى القديم الى الكدح نحو آلهة متعددة ليستخرج منها بعقلة الباطن فكرة الاله الواحد سواء ظهرت فى الاله رع أو فى مطلب اخناتون من اتجاهه الى الشمس ، كذلك وجهه هذا الدافع نفسه الى الانشاءات والتقنية ، ودفعه الى الاهتمام بالمضمير .

يقول بريستد (الى جانب اهتمام الناس بعددهم وزينتهم وتكنيكاتهم أضافوا اهتماما أخر مختلفا كل الاختلاف عن أى من هذه الاهتمامات أعنى الاهتمام بالضمير الاخلاقى (٣)

---

(١) جيمس هنرى بريستد (فجر الضمير) ص ١٥٥ (عن أهمية ما عرف فى الحياة المصرية القديمة) ترجمة الدكتور سليم حسن مكتبة مصر . الألف كتاب العدد ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤

(٣) المرجع السابق ص ١٤-٠٥

أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق م)

علينا بداية أن نأخذ كلمة فن عند افلاطون مرتبطة باطارها فى فلسفته، فالفنان عنده فيلسوف ، هو انسان انكشف له الجمال فى حقيقته الخالصة النقية غير الممتزجة بالاجسام والألوان الانسانية (١)، ومثال الجمال عنده هو الجوهر الموجود بالحقيقة ، ولايكون مرئيا الا لعين النفس (٢).

وافلاطون لم يكن ابدا معاديا الا للفن المعنى بالحس الشهوانى وحده، المهتم بالكذب وتزييف الحقيقة ، أما الفن الذى يصور الجمال الحق وجمال الفضيلة فهو معه وينشده لأنه وحده الفن الجميل ، ولذا فقد ركز على جمال الاشكال المكونة من خطوط لأن مثل هذه الاشكال - حسب اعتقاده - ليست جميلة جمالا نسبيا مثل باقى الاشكال ولكنها جميلة جمالا مطلقا ، كما أن اللذة المستمدة منها لاتتوقف على الرغبات والحاجات الانسانية (٣).

يعارض افلاطون الفن المثير للغرائز والخطاية المهيجة للمشاعر المزيفة للحقيقة ، ويؤيد الفن الذى يصور الجمال الحق المطلق ، والحب الاصيل دافع محرك للحق وللجمال ، وهنا تلغى الخطوط الفاصلة بين الفيلسوف والفنان .

وبذلك نستطيع ان نفهم العبارة التالية لافلاطون (اذا ارادت الخطابة أن تصبح فنا بالمعنى الصحيح فيجب عليها ألا تنكمش فى اطارها المحدود بل عليها أن تتطلع الى السماء وأن تمد بصرها الى آفاق أبعد من حدودها) نستطيع أن ندرك أن الخطابة الصحيحة عند افلاطون فلسفة ، وهى من عمل الفيلسوف الحق ، ذلك لانه كان يرى أن كل فن حقيقى ليس مجرد ممارسة وتمرين عملى وانما هو معرفة ودراسة للفنون الاخرى التى تربطه بها صلات مشتركة ، والفيلسوف عند افلاطون رجل ذو رؤية شاملة .

---

(١) (٢) دكتورة اميرة حلمى مطر . (الجمال من افلاطون الى سارتر) .

(٣) المرجع السابق ص ٦٥

(٤) د.أميره حلمى مطر (محاورة فايدروس) ص ٣٤ دار المعارف .

يقول فى محاورة فايدروس ، فى نص هام لمقالنا (أما النفس ذات الروية الشاملة فتستقر فى رجل قد تهيأ ليكون فيلسوفا محبا للحكمة أو محبا للجمال أو فى رجل تزود بالثقافة وصلة الحب)(١) ونقيض التفكير الشمولى الفلسفى الاصيل هو التفكير التقسيمى الذى يعجز عن الوصول الى الاطر الكلية ويتوقف عند التفصيلات فى قناعة أو ولع ، ونستطيع ان نجد لدى افلاطون معارضة للتفكير التقسيمى ، يقول فى فايدروس (مالم نصل الى تحديد للطبائع المختلفة لمن يستمعون لنا ..... مالم نقدر على تصنيف الاشياء وفقا لأنواعها ، ومالم نرد الجزئيات الى الفكرة العامة التى تجمعها فلن يرقى انسان الى مستوى الفن اللائق بالانسان ولن نحصل على هذه النتيجة الا بعد جهد كبير)(٢) .

التفكير الشمولى يعين على تحقيق الوضوح أما التفكير التقسيمى الذى يأخذ الأمور قطعا متناثرة فلا يمكن صاحبه من أن يضع يده على أصل الداء ولا على موطن الخير والحق فى هذا الموضوع أو ذاك ، يقول أفلاطون معبرا عن هذا المعنى وذلك على لسان سقراط (ما تصادف أن قلناه قد تضمن منهجين من الواجب أن نفهم وظيفتهما فهما فنيا إن امكن ذلك ، الأول يتلخص فى جمع الكثرة المبعثرة فى مثال واحد بفضل النظرة الشاملة حتى يمكننا الوصول الى تعريف يوضح الموضوع الذى نريد معرفته (٣) ، تبقى نقطة أخيرة ، نفس الفيلسوف والفنان الأصيل نفس ذات رؤية شاملة ، كما ورد فى نص سابق ، ومن ثم فانه لا يمكن ، وهى بذلك أولى ، مع مئات موضوعات المعرفة ، لا يمكن الا أن ندرسها بمنهج شمولى ، ويرفض افلاطون منهج دراسة النفس منفصلة وكأنها وحدة قائمة بذاتها (هل يكفى لدراسة النفس أن نعزلها عن دراسة الكل ؟ كلا فمن رأى أبقراط أنه لا يمكن عزل الموضوع الذى ندرسه عن دراسة الكل حتى فى دراستنا للنفس)(٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ١٢١

(٣) المرجع السابق ص ١٠٦

(٤) المرجع السابق ص ٣٤

ديكـارت : (١٥٩٦-١٦٥٠م)

الفلسفة عند ديكارت فعل كلي شمولي يظهر في المنهج الكلي الشامل الذي يصلح لدراسة علوم كثيرة ، ولا يقتصر تطبيقة على الرياضيات وحدها ، وهذا ما يدل عليه عنوان كتابه (المقال في المنهج لاحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم) وهو يرى في هذا (أن الذهن اذا اعتاد مطالب المنهج الصحيح استطاع أن ينقلها الى مجالات اخرى غير العلوم الرياضية)(١)

والفيلسوف عند ديكارت منفتح على العلوم كلها غير مقتصر على علم بعينه أو دراسة بذاتها ، ذلك لان العلوم جميعا - كما فهمنا من نصوصه - ليست الا العقل البشري الذي يبقى هو دائما بعينه مهما تتنوع الموضوعات التي يبحثها دون أن يتغير ذلك الاختلاف من طبيعته أكثر مما يغير اختلاف الاشياء من طبيعة الشمس التي تلقي على الاشياء نورها .

ومن الخطأ في رأي ديكارت أن يتم درس العلوم متفرقة متباعدة لأن الاشتغال بعدة علوم أدعى الى تجويدها وافادة بعضها من بعض ، ذلك أن العلوم متآزرة متعاونة قد بلغ من تساندها أن كسبها جملة وفي مجموعها قد يكون أحيانا أقل كلفة وعناء من فصل بعضها عن بعض ودرس كل منها على حدة ، ويفسر ديكارت ذلك بأن العقل البشري واحد لا يتغير مهما تتنوع الموضوعات التي يخوض فيها ، فهو لا يحتمل القيود والفواصل التي يقدمها الناس تعسفا ، فموقف ديكارت هنا يخالف موقف العلماء المتخصصين - كما يقال اليوم - اذ ليس للعلوم ولما تحوى من معلومات جزئية من قيمة في نظر الفيلسوف الا بانتسابها الى شيء واحد يشترك الناس فيه : هو العقل السليم أو الحكم المريح bone mens (٢)

---

(١) النص نقلا عن د. عثمان أمين (ديكارت) ص ٨٣

(٢) د. عثمان أمين (ديكارت) ، ص ٨٠ ، مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الرابعة ، ١٩٥٧.

هذا أحد معانى الشمولية لدى ديكارت : الدعوة الى الاشتغال بعدة علوم، ولعله كان ينظر فى دائرة نشاطه هو نفسه . وسوف نعود الى تلك النقطة ، المعنى الآخر للشمولية التى نريد أن نجعل عقل الفيلسوف مرتبطا بها سواء فى تعريفه للفلسفة وللعقل والعلم وكيف يجب أن يسير طلبه أو فى الجانب التطبيقى الذى تكشف عنه اهتمامات ودراسات هذا الفيلسوف أو ذاك وما فيها من تنوع وتعدد ... المعنى الآخر هو عناية الفلسفة بالعلل والمبادىء الاولى لكل الوجود .

ولكن هل ترد الشمولية فى تعريف ديكارت للفلسفة ؟ أجل ، يقول فى رسالته الى مترجم كتابه المبادىء " ان لفظ الفلسفة معناه دراسة الحكمة وأنه لا يقصد بالحكمة التحوط فى تدبير الامور فحسب بل يقصد منها معرفة كاملة لكل ما يستطيع الانسان أن يعرفه اما لتدبير حياته أو لحفظ صحته أو لاستكشاف الفنون جميعا وأن المعرفة التى يتوسل بها الى هاتيك الغايات لابد أن تكون مستنبطة من العلل الاولى بحيث يكون من الضرورى لاكتسابها - وهو ما يسمى على التحقيق تفلسفا - أن نبدأ بالفحص عن هاتيك العلل الاولى أى بالفحص عن المبادىء (١) .

والفلاسفة بنظراتهم ونظرياتهم الشمولية نافعون لمجتمعاتهم ينهضون بها الى مستوى انسانى رفيع ، ويذودون عنها دواعى الحرب والفرقة ودمار الانسان ، ويسارعون فى منع حدوث دمار روحى ، البداية مع نشأة كل حضارة هى فعل التفلسف وان لم يستمر هذا الفعل فى ممارسة مستمرة من حيث هى تحليل وايقاظ واعادة نظر فى المسلمات الشائعة .

ومن حيث انها نظر شمولى غير محدود بقائمة موضوعات لا يجب تجاوزها ، ان لم يستمر فعل التفلسف فمصير الحضارة السقوط .

---

(١) ديكارات : (مبادىء الفلسفة) ص٤٦ ترجمة د. عثمان أمين - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠.

وديكارت محق فى اشارته الى منفعة الفلسفة وأنها (مادامت تتناول كل ما يستطيع الذهن الانسانى أن يعرفه فيلزمنا أن نعتقد أنها هى وحدها تميزنا عن الاقوام المتوحشين والهمجيين ، وأن حضارة الامة وثقافتها انما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها ، ولذلك فان أجل نعمة ينعم بها الله على بلد من البلاد هو أن يمنحه فلاسفة حقيقيين .وكنت أبغى أن أبين فوق هذا أنه بالنسبة الى الافراد ليس فقط من النافع لكل انسان أن يخالط من يفرغون لهذه الدراسة ، بل ان الافضل له قطعا أن يوجه انتباهه اليها وأن يشتغل بها ، كما أن استعمال المرء عينيه لهداية خطواته واستمتاعه عن هذا الطريق بجمال اللون والضوء أفضل بلا ريب من أن يسير مغمض العينين مسترشدا بشخص اخر ... ولأن يحيا المرء دون تفلسف هو حقا كمن يظل مغمضا عينيه لا يحاول أن يفتحهما ، والتلذذ نبروية كل ما يستكشفه البصر لا يمكن أن يقارن بالرضى الذى ينال من معرفة الاشياء التى تنكشف لنا بالفلسفة .

الفلاسفة جميعا ومنذ عرف الانسان ممارسة دافع التفلسف يرتفعون عن مجال الحواس ويطالبون غيرهم بهذا الارتفاع ، دون أن يعنى الارتفاع الترفع أو احتقار المحسوسات ... اذ لو كان الامر احتقارا وانكارا لما وضع الفلاسفة أنفسهم عقليون وتجريبيون قواعد البحث العلمى التى تعين على الوصول الى فهم اسرار الطبيعة والتغلب على مشكلة قصور الحواس .

وديكارت يعنى بأن يوجه انتباهنا الى عدم الركون الى معرفة الحواس ، وسواء كنا مع التأملات أو مع المبادىء أو مع قواعد المنهج نجده يتحدث عن مطلب الشك فى الحواس وعن ضرورة البدء بالافكار الواضحة المتميزة التى يسلم بها النور الفطرى وتسلم من خداع الحواس ، وهو مع أنه رجل علم وصاحب أبحاث علمية يدرك أن من فطرة الانسان النظر الشمولى الذى يرتفع كلية من مجال العلم ومن مجال الحس - حتى بعد تنقيته من الوهم والظن والشك - الى مجال الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة ، وهنا نلتقى بالخير الاسمى ، وما تلك الا قضية افلاطون الاولى .

يقول ديكارت فى مقدمة المبادىء وهو يعرف الفلسفة (أود أن أقول أخيرا إن هذه الدراسة ألزم لاصلاح اخلاقنا وهداية سلوكنا فى الحياة من استعمال عيوننا لهداية خطواتنا • والبهائم العجماوات التى لاهم لها الا حفظ جسومها لا تكل عن الدأب والسعى فى طلب اقواتها : أما الناس الذين أهم جزأ فيهم هو الذهن فيجب عليهم أن يجعلوا طلب الحكمة همهم الأكبر ، لأن الحكمة هى القوت الصحيح للعقول •••••••••• وليس من النفوس نفس مهما تكن من قلة النبل تظل متعلقة بالحواس تعلقا شديدا فلا تتحول عنها حينا من الدهر متشوقة الى خير آخر أعظم ، وان تكن فى الغالب تجهل ما هية ذلك الخير • والذين أتاهم الله حظا عظيما فأنعم عليهم بالعافية والمناصب والاموال ليسوا أقل من غيرهم رغبة فى ذلك الخير ، بل انى لأحسبهم أشد لهفة واشتياقا الى خير آخر أكمل وأسمى من كل مايملكون من خيرات • وهذا الخير الاسمى اذا نظر اليه بالنور الفطرى دون نور الايمان لم يكن شيئا سوى معرفة الحقيقة عن طريق عللها الأولى أعنى الحكمة التى تدرسها الفلسفة [1] فديكارت اذن يفهم الفلسفة على أنها :

١- معرفة كاملة لكل ما يمكننا من تدبير حياتنا ومن استكشاف المعارف جميعها •

٢- معرفة العلل الاولى والاقتراب من الخير الاسمى واستشراف نور الالوهية •

وما يصف به ديكارت الفلسفة ينطبق تماما على عقله هو وعلى نوع ممارسته للتفلسف ، فهو قد شغل بالعلوم المادية : توصل الى تفسير لظهور الشموس الكاذبة فى روما سنة ١٦٢٩ وشغل بالتشريح واستطاع أن يقدم تفسيرا جديدا لحركة القلب ، وألف كتابا فى الطبيعة هو كتاب العالم والضوء ، وقد رفض نشر هذا الكتاب بعد محاكمة جاليلو وتعذيبة ، وفى سنة ١٦٣٧ نشر كتابه العظيم (المقال فى المنهج) مع ثلاثة بحوث فى البصريات والآثار العلوية والهندسية ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية بتطبيق الجبر على الهندسة ، كماأسهم فى تقديم علم الميكانيكا •

---

(١) ديكارت : مبادى الفلسفة ص ٥٠ ، ترجمة د• عثمان أمين •

ومع اهتمام ديكارت بالبحث العلمي كان له اهتمام بالميتافيزيقا، ويعود هذا الاهتمام الى سنة ١٦٢٨ عندما فكر في كتابة بحث عن الالوهية وبعد تعثر مرتين استطاع سنة ١٦٤١ أن ينشر في باريس كتاب (التأملات في الفلسفة الاولى) وفيها اثبات لوجود الله وتمييز بين النفس والجسم ، ثم نشر كتاب المبادىء عام ١٦٤٤ [١] وأحب أن يلتفت القارىء الى أمرين هامين للنقطة التي تركز عليها وهي الطابع الشمولي لعقل الفيلسوف، ولمعنى الفلسفة :

١- لقد شغل ديكارت بالعلم والفلسفة كليهما والخلاف حول مسألة هل هو رجل علم أساسا ولاتشغل الميتافيزيقا عنده الا دورا ثانويا أم العكس [٢] خلاف ينطلق أساسا من استعداد لدى أصحابه للفصل بين العلم والميتافيزيقا واعتبارهما شيئين متباعدين أو متعارضين ، وتلك نظرة خاطئة فالعلم الاصيل يطالب بالبحث في الميتافيزيقا ، لقد تعلمنا من درس تاريخ الحضارات أن أحدهما يأتي أولا ثم يعقبه الثاني على الفور ، والتقسيم الذي وضعه أوجست كونت للفكر البشري من منظور تاريخي تطوري - بالمعنى العام لكلمة تطور - تقسيم خاطيء يقوم على فصل متعسف ، فقد وجدنا حضارات كثيرة تتضمن الامرين معا : العلم والميتافيزيقا ، بل نجدهما أحيانا لدى الفيلسوف الواحد ، في الحضارة الاسلامية مثلا وجدنا انكارا شديدا للخرافة ولطلبها يستحيل التحقق منه علميا ، فالكندي مثلا يرفض الاشتغال بالكيمياء بقصد الحصول على الذهب وقال ان الاشتغال في الكيمياء بقصد الحصول على الذهب يذهب بالعقل والجهود ، وكذلك كان الكندي لايؤمن بأثر الكواكب في أحوال الناس ، ولايقول بما يقول به المنجمون من التنبؤات القائمة على حركات الاجرام [٣] وهو في نفس

---

(١) انظر التطور العلمي والفلسفي لمؤلفات ديكارت في كتاب : د. نازلي اسماعيل حسين (الفلسفة الحديثة : رؤية جديدة) ١٩٧٩ مكتبة الحرية الحديثة .

(٢) راجع هذا الخلاف تفصيلا في المرجع السابق .

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ص ٣٦ تحقيق وتقديم محمد عبد الهادي أبو زيد الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي .

الوقت يجعل الميتافيزيقا مهمة أساسية للفلسفة ولانزاع بين الشريعة والفلسفة لا ن الحقيقة وعلم الاشياء بحقائقها هدف كليهما فالروح العلمية العقلية ومطلب الميتافيزيقا ومطلب الوحى أمور ثلاثة تتوحد فى ظل الحضارة الاسلامية وتترابط بقوة .

كارل جاسبرز (١٨٨٣-١٩٦٨) (١)

المدخل الملائم لموضوعنا هو تفرقة جاسبرز بين الفهم والبصيرة ، الفهم Verstand يقوم بالتفكير الجزئى الموضوعى وبالتفكير الاستدلالى ، انه تفكير خال من الالتحام بالذات ، يقول عنه (هو تفكير مخترع وصانع ، وعندما تنفذ قواعده ومواصفاته تسطيع تحقيق زيادة الناتج وبتكرار لامحدد ، ونجدنا أمام هذه النتيجة : أفهام قليلة تخترع وتصنع الشروط الآلية النمطية ، وكما لو أنها تخلق عالما ثانيا - غير عالمنا الاساسى الطبيعى - وفى هذا العالم الجديد تقوم الجماهير بأدوارها التنفيذية) (٢) .

ثم يقول عن التفكير القائم على البصيرة انه ليس مجرد منفذ لرغبات الجمهرة واتجاهاتها ، وانما يتطلب ذلك التفكير من كل فرد أن يكون ذاته ... أن يمارس تفكيره الاساسى ، والحقيقة فى هذا المجال لاتقوم على عملية تكرار آلى وانما يقيمها قرار وحسم وفعل ارادة ذاتية لكل شخص ، وذلك على مسئوليته (٣) .

---

(١) كارل جابرز ، فيلسوف ألمانى معروف بوجوديته المؤمنه ، وتعتمد فلسفته اعتمادا جذريا على فيلسوفين كبيرين استمد منهما اصول فلسفته وهما كانت Kant وكيركجورد فهو لايريد أن يضحى بأحدهما ، وتلك هى مفارقة فلسفة جابرز ، وانتهى بالنسبة للوجود الالهى الى الايمان بقوة عليا اطلق عليها اسم (العلو) وهو فى نفس الوقت يرفض الاديان جميعها ، ويذكرنا هذا بفكرة كانت (الدين فى حدود العقل الخالص) .

(٢) (2)Jaspers, Karl, The Future of Mankind P.9.

(3)Ibid P.213.

لكن جاسبرز لا يريد ان يستغنى عن الفهم ، فالمعارف التى يقدمها الفهم فى أى مجال ضرورية وتمثل المادة التى تعمل البصيرة بها ، هو يريدنا ألا نكتفى بالتفكير الآلى الفاهمى وانما نضيف اليه أو بالاحرى نضعه داخل محارة البصيرة ، هنا يحدث نوع من التفكير قائم على الصدق والتواصل الحميم مع الآخرين .. ليس مجرد اتصال من ذلك النوع الذى يحدث بين رجلين تربطهما معا مصالح مشتركة أوبين علماء فى مجال تخصص واحدأو بين ساسة يعملون على المستوى الميكافيلى وانما هو تواصل تفتح حسبه كل ذات - وبصفه خاصة ذوات القادة - أبوابها ونوافذها على ذوات الآخرين ..... تتخلى عن الكذب والخداع والمناورة .

وهذا النمط من التفكير الذاتى - ان صح التعبير على ما فيه من مفارقة - ضرورى لمواجهة مشكلاتنا المعاصرة الحادة وبصفة خاصة مشكلة السلام العالمى ، ذلك أن التفكير القائم على الفهم وحده أو بتعبير جاسبرز التفكير الآلى لم تصل بنا سفنه الى شواطىء آمنة سالمة ، وبقى السلام مهددا بالرغم من قيام المنظمة الدولية وبالرغم من توجيهات الكتاب الذى قيل ان الامم المتحدة قامت بسببه ، وهو (مشروع للسلام الدائم) لكانت[1] هناك وبعد أن رأى جابرز حربين عالميتين قامتا والامم المتحدة قائمة وحروب صغيرة تندلع فى مكان .. هنالك لم يكتف بالأمر بالمطلق الاخلاقى الكانتى وجعل الذاتية عنصرا اساسيا فى بنية التفكير ، وأطلق على هذا الاسم (طريقة جديدة فى التفكير) ، يقول (يقوم وعى الانسان بذاته ويتأسس على التغير الداخلى غير المفهوم بصورة كاملة ، اذا عملت على اقامة الوجود على الاتجاه الآلى الفاهمى .... على معرفة الجزئيات والاجراءات فاننى أغرق فى اللاشىء ، البصيرة توقفنى على ضفاف ذاتى) .

وبالتقاء البصيرة مع المعرفة القائمة على الفهم - أو العقل حسب استعمالنا الشائع - يحدث التجاوز واختراق الحدود أو بتعبير اخر يحدث التفكير الشمولى - يقول جاسبرز (كل ماهو مجال تفكير موضوعى وعلى أساس الفهم يجب

---

(١) كانت (مشروع للسلام الدائم)ص ٨ ترجمة د. عثمان أمين . الانجلو المصرية - ١٩٥٢ .

أن نفكر داخل حدوده وأن يدخل في نفس الوقت مجال البصيرة ، فهنا تتم مواجهة حدود المعرفة وتجاوزها في نفس الوقت . والحق أنه لاشيء يوجد بذاته منفصلا عن غيره ، اننا نستطيع أن نضيء (الكل) .ونخدم هدفنا اذا نحن دخلنا من سائر الزوايا مع جوانبها المتغيرة ...اننا لانفهم الا من خلال (الكل) ومع هذا (فالكل) نفسه غير مرئي) .

وتعبير (الكل) عند جابرز يكاد يكون مرادفا لتعبير الشامل (The Encopassing) Das Umgreifende والشامل اصلاح يعنى به الافق الذى يستوعب الجانب المعروف من كل نمط من أنماط الوجود (خاصة وجود الانسان ووجود العالم) ويزيد عليه ونشعر بأنه أكبر من المعروف .

يقول جاسبرز وعلينا أن نلتفت الى خصوصية أسلوبه وأنه يقترب مما نسميه في الأداب التجسيد ..... تجسيد المضمون بتحويله الى أبنية صور (في التفكيرالمتكامل كما في الاقتراب من البدائل النهائية لانستطيع أن نفعل أكثر من الوصول الى المكان الذى يبدو وكأنه ينتظرنا ، لامحدود ، ويقع وراء كل الزوايا . هناك نجد الملاذ فنرشد فعلنا . ولم تزل تلك الصورة بعيدة عن التفكير الشائع القائم حاليا .

وهو يتناول بأسلوب تحليلي وجودى أمورا كثيرة : أوهام زعم امكانية مراقبة السلاح الذرى وفشل الرقابة المشتركة - الاشتراكية - الديمقراطية - التضحية - الاخلاق - سلبية رجال اللاهوت في قولهم انه اذا كان الله قد قدر حربا عالمية ثالثة فسوف تحدث .... وماذا بأيدينا نفعله ؟.

وأنت معه - لأنه فيلسوف والفلسفة - تفكير شمولي - تثق في أن كل هذه الامور مترابطة احداها بالاخرى وترتبط سائرها بموضوع السلام العالمي وهذا الموضوع مرتبط بالانسان فهما وبصيرة لان السلام ارادة وقناعة داخلية جوانبة وليس مجرد استدلالات عقلية .. والانسان شامل أى أن الاطرالمعرفية لاتحيط به .

يقول عن منهجة (ليس هدفي في هذا الكتاب أن آخذ موقفا جزئيا قائما

على ما هو مجرد قسم من الاقسام Departmentat Thinking
وانما اقصد مخاطبة ذلك الجزء من الانسان الذى يقع فوق الاقسام . ان كل مهمة جزئية تتطلب جهدا جزئيا ، فلدينا فى العلم تخصصات وأقسام متخصصة فى الادارة ، ومختصون عدة فى السياسة ، لكن كل الاقسام تفترض وحدة الكل ، الاقسام لها معنى محدد ، الكل الذى يربطها يحدد مجال ثباتها ، هو مصدرها وهو محور هديها وتوجيهها ، (الكل) من ناحية أخرى يخص الجميع ولا يتعلق بشخص لذاته وانما يكون الشخص مهما بقدر ادراكه للكل ، وتتوقف نزعة التقسيم Departmentalization عندما توجه كل الاقسام الى الاطار الذى فيه ازدهارها ، لكن (الكل) أو المصدر أو الهدف لايمكن أن يغدو موضوع قسم بعينه ، وذلك لان كل الاقسام تستمد منه معناها) .

وقد يفترض القارى ، بأن هذا الكل أو المصدر أو الهدف انما هو شامل الشوامل أو العلو (الا له الواحد) لكننا نسارع ببيان أن الكل أو المصدر أو الهدف انما هو الانسان ... الانسان الذى يلتقى عنده الفهم والبصيرة ، العلم والفلسفة ، الموضوعات والذات - ذوات الآخرين وذات الفرد ، الانسان هو ما يفرض علينا الاتجاه الشمولى المستقطب لكل الزوايا والمستوعب للفهم والبصيرة ... للمعرفة بالجزئيات الموضوعية لامور قائمة خارج الذات ، وللصدق والارادة الصادقة وهما الرحيق الذى به تصبح اللقاءات والاتفاقات والمعاهدات امورا جادة ومقبولة من الجميع وتنفذها سائر الاطراف ... الا فانها تغدو مؤامرات ويصبح هذف المؤتمرات وجها أصفر شاحبا بلا حياة .

ولان الفلسفة عند جابرزهى فى المحل الاول تنوير ذاتى فانه يفرق بين العلم والفلسفة - ثم يجعل كلا منهما - بالرغم من تمايزهما - ضروريا للآخر (١) ، وهو يقول لنا فى كتابه عن السلام العالمى (المشكلة قائمة فى كل مجال من مجالات وجودنا باعتبارنا كائنات مفكرة ، انها تشمل مشكلتى الفهم Verstand (Understanding) والبصيرة Vernunft (Reason)

---

(١) انظر مقال الفلسفة والعلم ، ملحق بكتاب :
Jaspers (Karl) The Way to Wisdom
وهو الترجمة الانجليزية لكتابه (مدخل الى الفلسفة) .

مشكلة العلم المتخصص والفلسفة ، يختص العلم موضوعيا بالمعرفة القائمة على الفهم ، أما الفلسفة فهي تنوير ذاتي عقلاني ، متمايزان لكنهما مترابطان متحدان ، يغدو العلم بلا أساس اذا تخلت عنه الفلسفة ، والفلسفة تعجز عن اتخاذ أي خطوة بدون الفهم .

ويرى جابرز أن تلك الطريقة من التفكير - والتي ترجع الى دخول البصيرة - التفكير المتجاوز للاقسام والتي لا تخص أي قسم وحده نوع من الفلسفة التي يمكننا توقعها من أي انسان ، ثم يقول (انه خطأ الفلاسفة وبصفة خاصة خطؤنا نحن اساتذة الفلسفة ، فبدلا من البحث عن اللغة الانسانية ندع فكرنا يحصر نفسه في دائرة محدوده ويهبط الى مستوى قسم ... الى فلسفة أكاديمية) (1).

ومنطقة عمل التفكير الشمولي هي القضايا التي تعني الجميع ، ومرتبطة بكل شخص ، والقنبلة الذرية واحدة من هذه القضايا ، انها ليست مشكلة خاصة أو جزئية يحلها ويواجهها الخبراء بمقاييس جزئية خاصة ، ليست سوى الا بين عديد من الاسئلة ، وانما هي السؤال الحيوي : أن نوجد أولا نوجد . اذن فنحن بحاجة الى تفكير يتجاوز التخصصات ، تفكير يشترك فيه الجميع من ناحية ويفحص كل النقاط المتصله بالموضوع من ناحية أخرى ، ويتغير حسب كل فرد جوانبا التفكير الفلسفي عند جابرز تفكير شمولي لان الذات فيه تستثمر كل ما يتاح لها من معارف لتصل الى قرارات فيما يتصل بأمورنا الحياتية الهامة : أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وأنت تجد كل هذه الامور عند جابرز اخذه تسمية الفلسفة أو السياسة - خاصه في كتاب (مستقبل الجنس البشري) .

يقول (المهمة الاساسية للفلسفة هي أن تجعلنا نفكر عن طريق البصيرة Vernunft وتلك تتضمن المعرفة والاخلاق والتضحية بالنفس ، انها تحتاج الى المعرفة لكي نعرف ما هو قائم وموجود ، وتتطلب الاخلاق لاننا بدون المدرك الخلقي وقد خبرناه كشيء يقيني وبدون التضحية بالنفس من أجل المبادئ نصبح

---

1 - Jaspers (Karl) The future of Mankind. P.10

كائنات غير عقلانية ولا تمتلىء حياتنا الحاضرة بالمعنى .... الفيزياء والتكنولوجيا والعلم أمور خبراء ، تتطلب معرفة ومهارات جزئية من أجل مهمات جزئية ، هذه المعرفة الخاصه فى العلوم أمر صعب الحصول عليه ، تستغرق دراسة وتدريبا طويلا وخاصا ، ومن المؤكد أن كل انسان باطلاق أو بصفة عامة ليس بحاجة اليها ، بينما ما يكافىء هذه المعرفة التخصصية فى الفلسفة والسياسة أمر يحتاجه كل انسان ، فلكى نترك خبراء فلسفيا وسياسيا نحتاج لخبرة الحياة نفسها ولايجب أن نعتمد على الفهم وحده وانما يجب أن نعتمد على كل الانسان بدوافعه الاصلية ، لايستطيع كل شخص أن يصبح عالم طبيعة ، لكنه أمر أساسى أن يشارك كل موجود بشرى فى السياسة وفى الفلسفة ، وهو يطلب فى هذين المجالين حقه فى أن يقتنع ، ولا يريد أن يخدع بعبارات تفرضها السلطة (١) .

ومن اشد مخاطر التفكير التقسيمى أنه يؤدى الى أن نعتبر نشاطنا الخاص المحدود مطلقا ، علينا أن ننفذه بغض النظر عن (الكل) حتى ينمو ويصبح قوة مؤذية للكل . وبصفه عامة نستطيع أن نقول ان السياسة المؤذية تستخدم هذا الميل نحو التفكير التجريدى ، خاصه لدى هؤلاء الذين يمارسون التفكير الادنى اذ يحاولون دائما فصل المشكلات التى تحدث ، يفصلون الامور العسكرية عن الامور السياسية ، والامور السياسية عن الامور الاقتصادية وتلك عن الامور الثقافية ، حقيقة يميز التفكير العقلانى بين كل هذه المستويات ، لكن قراراته تتم على أساس الربط بين كل الدوافع . التفكير العقلانى هو التفكير الذى يقهر التجريدات .

وتنتهى تجريدات الفهم بدون هذا الى فرض تعصب أو تذهب هباء اذ لايستطيع انجاز، شىء .... شىء له قيمة . (٢)

1- Ibid. P 196

2- Ibid PP. 210-212

والتفكير العقلانى هو التفكير القائم على البصيرة Vernunft :

خاتمـــــة :

لاشك أننا مدعوون بعد ازدياد حدة التخصص وبعد أن فرضت النزعـــة التقنية نفسها بقوة على مجالات كثيرة فى العلوم الانسانية (فى علم اللغـه وفي المنطق الرمزى وفى الشعر [١] والأدب بل وفى فن التصوير Painting ، وبعد أن أصبح كثير من الدارسين لايلقون اهتماما الى الروابط والعلاقـات التى تربط موضوعا من موضوعات تخصصهم بموضوع أو موضوعات فى مجال آخـر غير تخصصهم ..... وبعد أن ظهر كثير من الدراسات جافة ذابلة يأباهـــا التطبيق ويشعر بقصورها العقل ..

بعد كل هذا ألحت الحاجة للتذكير بالدافع الرئيسى للمعرفة وكيف أنه دافـــع شمولى اساسا ولايجب أن ينسينا التخصص والطابع الاكاديمى وضيق الوقـــت وعجلة الحياة تلك الشمولية العقلية وكأن الاصل هو التجزئى ، والتقسيـــم ، ونحن فى دولنا النامية وايدينا تمتد الى منع حضارة يلتحم فيها الجانب المادى مع الجانب الروحى فلا نكرر مأساة الحضارة الاوربية كما عبر عنها شفيتـــزر وشبينجلر وتوينبى وجابرز ونيبور ... نحن أشد الناس حاجة الى أن نتذكـر أولا وجود الدافع الفلسفى فلا نعمل على تغييبه والتعتيم عليه وأن نتذكـــر شمولية هذا الدافع فنمد الخيوط قوية نافعة بين مجالات كلها مرتبطه بالانسان .

أ- نستطيع ان نتذكر اهمية (الضمير) والاخلاق فى الحياة المصرية القديمـــة وفى الثقافة الاسلامية بعد ذلك ، وقد اقبلت الحضارة المصرية والحضـارة الاسلامية كلاهما على العلم والتقنية ، لكنهما اهتما بالضمير والاخـــلاق اهتماما بالغا .

ب- علينا فى مناهجنا التربوية والتعليمية أن نعمل على ابراز الصفوة أصحـــاب

---

(١) انظر الكتاب :

1- Heineman, Exstentialism and Modern Predicament P 3.

النفوس ذات الرؤية الشمولية) أو الفلاسفة أولئك القادرون على (رد الجزئيات الى الفكرة العامة التى تجمعها) كما صور أفلاطون وغيره .

جـ يحسن أن نسلم مع ديكارت بأن العلوم متآزرة متعاونه ، ولذلك فان كسبها جملة وفى مجموعها قد يكون احيانا أقل كلفة وعناء من فصل بعضها عن بعض ، وعلينا أن نتذكر مع ديكارت أن الدافع الى التفلسف يتناول كل مايستطيع الذهن الانسانى أن يعرفه ... وهو وحده ما يميزنا عن الاقوام المتوحشين .

د- لقد حدث فى عصرنا انهيار حضارة انسان القرن العشرين ، ذلك القرن الذى شهد حربين عالميتين وحروبا صغيرة قاسية حامية الوطيس فى أماكن مختلفة من العالم ..

وشهد ظهور حكومات ديكتاتورية فى دول كثيرة ، وظهور تحكم الجماهير باسم الاشتراكية وحدث تسخير الدول للعلم والعلماء لخدمة انتاج القنابل الذرية ، وقد تم كل هذا فى حضور وتحت سمع وبصر المنظمات العالمية والقوانين والمؤتمرات والمواثيق وثورة التقنية الثانية (علم السيبرناتكس) وثورة المعلومات ... وتلك أمور قدمها العقل الانسانى (الفهم حسب اصطلاحنا مع جاسبرز ... قدمها العقل فغشلت .

وكان لابد من التماس طريقة جديدة للتفكير طريقة شمولية تستوعب الفهم والبصيرة ، الانشاءات الخارجية والتواصل والصدق الجوانيين .

وكان لابد من طرح التفكير التقسيمى جانبا والاتجاه الى تفكير يربط بين الامور ويكون من حقنا جميعا : اساتذة وأطباء ومهندسين وطلاب .. المشاركة فيه .

وجاسبرز فى تلك اللمسات يفيد من افلاطون وديكارت وكانت ويضيف اليهم، ونحن بدورنا مدعون للافادة منه .